غزوة الحجاز والمؤتمر الإسلامي

كيف نشأت فكرة الغزوة؟

لم يكن لجلالة الملك ابن السعود أي فكرة عن غزو الحجاز وفتحه حتى سنة ١٩٢٣م؛ أولاً: لزنه لم يكن واثقاً تمام الوثوق بإمكان تغلب قواته على الحجاز ، وثانياً: لأنه لم يكن واثقاً من موقفّ الحكومة البريطانية، ويحقق له أن يحسب لموقفها ألف حساب؛ فهي التي أرغمته على ترك الحجاز والرجوع إلى نجد سنة ١٩١٩م بعد ضرب القوات الشريفية في تربة، وقد كان في إمكان قواته في ذلك الوقت أن تتقدم وتستولى على الطائف ومكة، لولا إنذار انجلترا له بأنها تعتبر تقدمه في الحجاز عملاً عدائياً موجها ضدها.

من سنة ١٩٢٢م رأينا علاقات الملك حسين تسوء مع المصريين، فرجع المحمل من جدة، كما ساءت بينه وبين الإنجليز والهنود على شتى المسائل: على المعاهدة، والبعثات الطبية، وسوء معاملة الحجاج الهنود، مع عجزه عن تأمين الطريق بين مكة والمدينة. ومما لاشك فيه أن فريقاً كبيراً من مسلمي الهند ومصر لم ينظروا نظرة استحسان لقيام الشريف حسين ضد الأتراك؛ ولهذا فإنهم قابلوا إعلان الملك حسين نفسه خليفة سنة ١٩٢٤م في فلسطين إثر إلغاء الخلافة التركية بالاستياء الشديد.

كانت نجد حتى سنة ١٩٢٣م تكاد تكون في عزلة تامة عن العالم، وقد أتاح لها الملك حسين الفرص، فهل تتركها تفلت من يدها، لقد تمكن مستشارو السلطان عبدالعزيز من إقناعه بفائدة الاتصال بالعالم الخارجي، وكنت في المقدمة، فنبدأ بإرسال برقية منه إلى جلالة الملك فؤاد يهنئه بافتتاح أول برلمان

(١) لارتباط المسألتين ببعضهما ارتباطاً وثيقا وضعناهما بجانب بعضهما.

مصري، ثم بأحد الأعياد، وأعلن الأمير فيصل في منشوراته كلها موقف نجد إزاء مسألة الخلافة، وإزاء بعض المسائل العربيـة، كالاتحاد العربي، واتصلت الهيئات الإسلامية ف يالهند بسلطان نجد، وتم التفـاهم على الأغراض الإسلامية العامة، والجميع متفقون على الاستياء من حالة الحجاز وسوء النظام السائد فيه.

أخذت كـتب التأييـد تَرى من سائر المدن الإسلامـية، وقوى الـصلة بين نجد ومصر أن جـلالة الملك عبدالعزيز شـارك علماء مصر في مـوقفهم حيـال مسألة الخلافة وحلها في مؤتمر يعقد في مصر، فاكتسبت نجد قوة أدبية لا تنكر.

فشل الإنجليز في محاولتهم تصـفية المشاكل بين ابن عود والأشراف في مؤتمر الكويت، وكان المسئول الأول عن هذا الفـشل الملك حسين، وخرج ابن السعود من المعركة ظـافراً ؛ لأنه كان متواضـعاً في مطالبه على خلاف الأشـراف، فإنهم كانوا مغالين، ولو أن الأشراف انتصـروا على ابن السعود في الحرب وأملوا عليه ما يريدون من الشـروط لم تكن شروطهم أشـد قسوة مما اشـترطوا، فكيف وهو حتى هذه الساعـة لم يهزم له جيش والبلاد التي يطالب بهـا الملك حسين ويدعى ملكيـتها لاتزال بـيده. وضعت نجـد لأول مرة الكتـاب الأخضـر وشرحت فـيه المسائل المخـتلف عليهـا، وما يطالب به الحـجاز وشرق الأردن والعـراق ليكون الموضوع كله أمـام العالم الإسلامي والعربي، فكانت خطـوة موفقة اكتـسب بها السلطان عبدالعزيز عطف عقـلاء العرب والمسلمين، ولكنه لم يصغ إلى ما أشار به مسـتشـاروه من الهجـوم على الحجاز ولو لتـصفـية الخلاف مع المـلك حسين لاعتبارات كثيرة.

خرج السلطان من مؤتمر الكويت وهو موقن بأن الأشراف لا يريدون به خيراً، وأنهم لا يألون جهداً في خلق المشاكل له ولبلاده، ولكنه قنع أخيراً بفكرة الهجوم

على الطائف والاستيلاء عليه فقط ليساوم الملك حسيناً عليه، فلعل الرجل يعدل ع غطرسته؛ وتقرر أن يكون ذلك بعد رجوع الحجاج إلى ديارهم دفعاً لما قد يحدث من المشاكل، وسينجلي موقف الملك حسين وموقف الحكومة البريطانية بعد احتلال الطائف.

لقد كنت موقناً بأن الإخوان سيتغلبون على قوة الشريف، وموقناً بأن انكلترا ستقف موقف الحياد، لأن سياسة ابن السعود إزاءها كانت سياسة مجاملة تامة وودية للغاية بعكس سياسة الملك حسين.

جاء عيد الأضحى وقدم رؤساء الؤخوان - أهل الخرمة وعتيبة وأهل الغَطْغَط- وغيرهم من قادة الإخوان للمعايدة على ولي أمرهم، وانتهزو هذه الفرصة وعرض عليهم مسألة غزوة الحجاز فهشوا وبشوا للمشروع، لأنهم سيطهرون بيت ا من البدع وينشرون دين ا الصحيح، ولأنهم سيغنمون الأموال وقد ذاقوا حلاوتها في تربة، كما سيغنمون أجر الجهاد من ا . وقد وضعَتْ خلاصة عما دار في المؤتمر من الأحاديث وأرسلت إلى جميع الصحف العربية والهندية، فكان لها صدى استحسان.

ترك الإخوان الرياض إلى بلدانهم ليستعدوا للجهاد: جهاد الملك حسين، وما أسهل استعدادهم للغزو، وهل يحتاج الأمر إلا إلى الناقة والبندقية والزاد والذخيرة؟ لم ينتصف شهر المحرم سنة ١٣٤٣ حتى بدأ الإخوان بمناوشاتهم مع بادية الحجاز وأكثرها ناقم على الملك حسين، ثم أخذوا يتقدمون وجيوش الملك حسين لا تقف في وجوههم حتى استولوا على الطائف في ٥ صفر ١٣٤٣، ثم وقفوا ينتظرون أمر مولاهم. ولقد حاول الملك حسين أن يستغل الحوادث التي وقعت في الطائف ضد خصمه في تنفير العالم الإسلامي، ولكنه فشل في ذلك

ومـرت الحادثة بدون أن يـكون لها أثر عـظيم في نفوس المـسلمين. وبرنامج ابن سعود خلال يجتذب النفوس ويتفق مع الروح الطيبة التي يتمناها عقلاء المسلمين لمهبط الوحي.

إن برنامجه أنه لايريد الفتح ولا علوّا في الأرض ولا فساداً، وكل ما يريده هو طرد الأشراف وتطهـير بيت ا ومـهبط وحـيه في ظلمهم وتحكـمهم، وأن مكة للمسلمين عامة، وأنه سينزل على رغبة العالم الإسلامي في ذلك كله.

ظل الإخـوان في الطائف ينتظرون أمـر إمامـهم، وليس هنالك سيـارات أو تلغراف بـين الطائف والرياض. والمواصلة الوحيـدة هي الجمل؛ والمسـافة ذهاباً وإياباً لا تقل عن ٢٥ يومـاً، إذن يجب أن ينتظر الإخوان هذه المد وسلطـاتهم قد شـدد عليـهم ألا يتـجـاوزوا الطائف، وإلا فـهـو يبـرأ إلـى ا منهم، أي أنهم سيكونون عاصين في عملهم، ولا داعي إلى ذلك، فـالغنائم التي استولوا عليها تحتاج إلى وقت لتقسيمها بينهم بالعدل.

جمع الملك حسين آخر مالديه من جنود وجـهزهم بآخر مالديه من الأسلحة، وسيرهم إلى الطائف لضرب الإخوان وطردهم منهـا، وهنا كانت معركة الهَدَى التي انقضَّ فـيـهـا الإخـوان على جنود الملك حـسين وهـزموهـم هزيمة منكرة، واستولوا على جميع ما كان لديهم من مال وسلاح.

هنا رأي الملك حسين أنه لم يبق له مقام في مكة، فاستعد للرحيل منها وتنازل عن الملك لـولده علي، بعـد أن أخلوا مكة ونقلوا كـل مـايمكن نقـله، ثم دخل الإخوان مكة صلحاً لا حرباً، فدخلوها خاشعين، وتولى الشريف خالد بن لؤى إمارة مكة ولقد صدق المثل « كمـا تدين تدان»، فكما سلط الشريف حسين البدو على الأتراك وبيوتهم، فـأعملوا فيـها يد النهب والسلب، كـذلك سلط ا عليه

الإخوان فقـاموا بنفس الرواية التي مثلت مع الأتراك، ما عـدا القتل فإن يدهم لم تمتد إلى قتل أحد في مكة.

وبعد فـتح مكة أرسلت الدول التي لهـا ممثلون في جدة مذكـرة إلى الطرفين المتحـاربين يذكرونهمـا برعاياهم وحسن معـاملتهم، ويحملونـهما تبعـة ما يقع عليهم من الأضرار، وأنهم جميعاً سيقفون موقف الحياد في النزاع بين الفريقين، فكانت هذه المذكرة أحسن بشرى للملك الذي كـان يساوره بعض القلق، فعجل بالسفر إلى الحـجاز ليتولى بنفسه اسـتصفاء الحجاز، وليحـول دون تكرار مأساة الطائف. ولم يكن هنالـك ما يمنع الإخـوان من الاستـيـلاء على جدة، لولا مـا أمرهم به إمامهم، فكانت هذه خير فرصة للشريف علىّ حصن فيها جدة، وحشد فيـها من القوات العسكـرية التي جمعهـا من فلسطين وشرقي الأردن ما جـعلها تقاوم نحو سنة.

غادر السلطان عبـدالعزيز الرياض في ١٣ ربيعلثاني سنة ١٣٤٣-١١ نوفـمبر سنة ١٩٢٤، فـودعه أهلهـا وعلماؤهـا وكبـار أعيـانها، وقـد ودع أهلها بهـذه الكلمات الخالدة التي نشرتها الصحف في حينها واعتبرها العالم الإسلامي عهداً جديداً لبلد ا الحرام.

* * *

إني مسـافر إلى مكة لا لـلتسلط عليـها بل لرفع المظالم والمغـارم التي أرهقت كاهل عـباد ا ، إني مـسافر إلـى مهبط الوحي لنـبسط أحكام الشريـعة، ونؤيد أحكامـها، فـبعـد الآن لا يكون سلطان في مكة إلا الشـرع، وجمـيع الرؤوس أ تطأطئ للشريعة. إن مكة للمسلمين كافة، فـأمر إدارتها وتنظيمها يجب أن يكون طبق وغائب العالم الإسلامي.

إننا سنجتمع بوفود العالم الإسلامي هناك وسنتبادل معهم الرأي في كد الوسائل التي تجعل بيت الله بعيداً عن الشهوات السياسية، وتحفظ راحة قاصدي حرم ا .

* * *

وقد وصل إلى مكة المكرمة في ٨ جمادي الأولى سنة ١٣٤٣- ٥ ديسمبر سنة ١٩٢٤ فدخلها دخول العبد الخاضع والمسلم الخاشع، لا الملك الفاتح، ولا الجبار المتكبر، فكان وصوله إلى مكة أكبر مصدر للطمأنينة، وأكبر مواساة للجروح الكليمة التي تركتها قسوة الإخوان في الطائف ، رأي أهل مكة والوافدون للتحية من شيوخ القبائل في سلطان نجد رجلا نبيلا متواضعاً حسن المعشر، واسع الصدر نصيراً للضعيف ملاذاً للمحتاجين، فأحبوه وأجلوه وأكبروه، وكانوا يقولون في أنديتهم لولا غلطة الإخوان وخشونتهم وقسوتهم لكان عهد ابن سعود في استتباب الأمن، والضرب على أيدي المفسدين، والقضاء على البدع والمنكرات لا يعادله إلا عهد الصحابة والتابعين.

وقد رأى يثاقب فكره وبعد نظره أن يزيد الطمأنينة في النفوس، ويؤكد ما سبق لكاتب هذه السطور إعلانه على كبار الحجاز وأعيانه قبل وصول عظمة السلطان ببضعة أيام فأمر بنشر المنشور الآتي :

لمن في مكة وضواحيها من سكان الحجاز الحاضر منهم والباد.

نحمد إليكم ا الذي لا إله إلا هو رب هذا البيت العتيق. ونصلي ونسلم على خاتم أنبيائه محمد صلى ا عليه وسلم.

أما بعد فلم يقدمنا من ديارنا إليكم إلا انتصاراً لدين ا الذي انتهكت

محارمه، ودفعاً لشرور كان يكيدها لنا ولديارنا من استبد بالأمر فيكم قبلنا، وقد شرحنا لكم غايتنا هذه من قبل، وها نحن أولاد بعد أن بلغنا حرم ا نوضح لكم الخطة التي سنسير عليها في هذه الديار المقدسة لتكون معلومة عند الجميع فنقول:

(١) سيكون أكبر همنا تطهير هذه البلاد المقدسة من الأعداء أنفسهم الذين مقتهم العالم لاإسلامي في مشارق الأرض ومغاربها بما اقترفوه من الآثام في هذه الديار المباركة.

(٢) سنجعل الأمر في هذه البلاد المقدسة بعد هذا شورى بين المسلمين، وقد أبرقنا لكافة المسلمين في سائر الأنحاء أن يرسلوا وفودهم لقعد مؤتمر إسلامي عام يقرر شكل الكومة التي يرونها صالحة لإنفاذ أحكام ا في هذه البلاد المطهرة.

(٣) إن مصدر التشريع والأحكام لايكون إلا من كتاب ا ، ومما جاء عن رسول ا عليه الصلاة والسلام أو ما أقره علماء الإسلام الأعلام بطريق القياس أو أجمعوا عليه مما ليس في كتاب ولا سنة، فلا يحل في هذه الديار غير ما أحله ا ، ولا يحرم فيها غي ما حرمه.

(٤) كل من كان منالعلماء في هذه الديار أو من موظفي الحرم الشريف أو المطوفين ذو راتب معين فهو له على ماكان عليه من قبل ، إن لم نزده فلا ننقضه شيئاً، إلا رجلا أقام الناس عليه الحجة أنه لا يصلح لما هو قائم عليه، فذلك ممنوع مما كان له من قبل، وكال من كان له حق ثابت سابق في بيت مال المسلمين أعطيناه حقه ولن ننقصه منه شيئاً.

(٥) لا كبير عندي إلا الضعيف حتى آخذ الحق له، ولا ضعيف عندي إلا الظالم حتى آخذ الحق منه، ولسي عندي في إقامة حدود ا هوادة ولا يقبل فيها شفاعة، فمن التزم حدود ا ولم يتعدها ف أولئك من الآمنين، ومن عصى

واعتـدى ف إنما اثمه على نفـسه ولا يلومن إلا نفسـه. وا على ما نقـول وكيل وشهيد: وصلى ا على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم.

عبد العزيز بن عبدالرحمن الفيصل السعود

١٢جمادي الأولى سنة ١٣٤٣

فكان لهـذا المنشور أثره السحـري لا في نفوس الحـجازيين فحـسب، بل في العالم الإسلامـي قاطبة، وأخذ مركـز ابن سعود يحتل قلب كل مـسلم مخلص وأخذ نجم الأشراف في الحجاز في الأفول وحكمهم في الزوال.

حاول الملك علىّ عقد الصلح، فوسط الأستاذ الريحاني ومستر فلبى (والسيد طالب) النقيب، ولكن البـرنامج معروف: المسألة إسـلامية يا ريحاني ويا مـستر فلبى، فليـس من شـأنكمـا التـوسط فـيـهـا، والرأي يا «سَيِّـد طالب» للعـالم الإسلامي، فما على الأشراف إلا أن يرحلوا من الحجاز، ويجتمع مؤتمر إسلامي ينظر في مسائل الحجاز، من كل نواحيه.

وقد مضت مدة والحرب دائرة بين الطرفين، وكل يعاني شدتها، ولكن شدتها على الملك علي كانت أشد على كل حال. وفي أبريل سنة ١٩٢٥م عرض قنصل السوفيت ووكـيل قنصل إيران، ووكيل قنصل هولاندا وساطتهم لـلصلح بصفة خاصة، لأن دولهم لم تكلفهم بذلك، فلم يقبل السلطان ذلك.

وفي مايو من السنة نفسـها قدم فؤاد بك الخطيب وزير الخارجيـة إلى معسكر السلطان ابن سعود محاولا الوصول إلى طريقة يوقف بها الحرب ويضمن بها بقاء الأشراف في الحجاز فلم يفلح. وفي أغسطس وسط الملك علىّ الدولة الإنجليزية للصلح، ولكن الحكومة البريطانيـة حينما عرت وساطتهـا بين الفريقين صرحت

بأنها تقبل الوساطة إذا رض يالفريقان هذه الوساطة، فكان جواب ابن سعود:

« إنه أعطى عهداً للعالم الإسلامي أن تكون الحجاز ومكة للمسلمين عامة».

وفي سبتمبر سنة ١٩٢٥ وصل فضيلة الشيخ المراغي وكان رئيساً للمنحكمة العليا الشرعية ومعه عبد الوهاب بك طلعت من موظفي السراي الملكية، ومعهما كتاب رقيق من جلالة مصر جواباً لكتاب سلطان نجد بمناسبة عزمه على زيارة مكة.

إنه ظرف ملائم جداً وفرصة نادرة لتوثيق العلائق بين مصر ونجد، وسلطان نجد كان ولا يزال معترفاً بزعامة مصر من وجهة الثقافة والمدنية، ويجب أن توطد العلائق بينه وبين مصر .

رأى عظمة السلطان بعد الاجتماع مع الوفد والتحاث معه في شتى المباحث أن أقوم بالبحث التمهيدي، وما نصل إليه من النتائج نعرضه على عظمته أوّلا بأول.

لقد سبقت الوفد عدة شائعات: منها أن الشريف علياً طلب بسط حماية مصر على الحجاز، وطلب أن ترسل الصدقات المعتاد إرسالها إلى مكة والمدينة إلى جدة، لتوزع على جنوده واللاجئين إليها من أهل مكة، ولكننا لم نقم وزناً لهذه الإشعاعات أو غيرها.

لقد تبين من الباحثات الأولية أن الوفد جاء لغرض وساطة مصر لصلح بين الفريقين المتحاربين، فما المخَرج من هذاالموقف الدقيق؟ إنا لا نريد إغضاب مصر، وسلطان نجد يحب ملك مصر ويحرص على اتصال حبل المودة معه، ولكننا لا نحب الصلح الآن، لأن حكم الأشراف في الحجاز قد آذن بالزوال،

فالمعلـومات تصل رلينا عـما تقاسـية جـدة والمدينة، وأن النصر قـاب قوسين أو أدنى.

أخبرت الوفد بسعي الحكومة البريطانيـة قبل شهر للصلح، واعتذار السلطان عن قبول هذه الوساطة، وليس من اللياقة قبول توسط مصر الآن. ماذا حنته مصر من الملك حسين؟ ألم يرد المحمـل المصري من جدة؟ ألم يتهم العثـة المصرية بأنها تحاول تسميم المياه؟ ألم ينزع من كسوة الكعـبة المشرفة اسم ملك مصر؟ ألم يعمد إلى الإساءة إلى كل مـا هو مصري؟ إذا كنتـم تريدون أدلة أخرى فهـاكم ملفات الحكومة الهاشمية، اقرأوها إن شـئتم فإنها دليل ناطق على ماكنت تطويه جوانح الملك حسين نحـو مصر وملكهـا وشعبـها. ألا يحسن أن نبـحث موضوعـاً آخر يكون فيه الخـيا للبلاد المقدسـة ولأهلها الوافدين عليهـا من المسلمين؟ إذا وضعنا أساسـاً لذلك فإننا بـلاشك نكون قد قـمنا بواجب عظيم نحو ديننا، ونـكون قد خدمنا الإسـلام والمسلمين أجل خدمة. أمـا الأساس الذي كان نتـيجتـه البحث فهو:

(١) أن الحجازيين من جهة الحكم، وللعـالم الإسلامي من جهة الحقوق التي لم في البقاع المقدسة.

(٢) إجراء استفـتاء عام لاختيار حاكم للحـجاز تحت إشراف مندوبي العالم الإسلامي.

(٣) يجب أن تكون الشريعة الدستور للحجاز.

(٤) استقلال الحجاز الداخلي.

(٥) جعل الحجاز على الحياد.

(٦) لا تعقد حكومة الحجاز اتفاقات اقتصادية مع دولة غير إسلامية.

(٧) تحديد الحدود الحجازية، ووضع النظم المالية والاقتصادية ولاإدارية موكول لمندوبي الممالك والشعوب والإسلامية.

وقد وافق عظمة السلطان ابن سعود على هذا الأساس وقال للوفد المصري: لكي تعلموا مقدار محبتي لمصر ولمليكها، وللمنزلة العظيمة التي له في قلبي، أو كل جلالته أن يدعو في مصر مندوبي المسلمين لنظروا في هذه الأمور، وما يقررونه سأقوم بتنفيذه . فسر الوفد كثيرا وعد النتيجة التي وصل إليها خيراً من المهمة الأولى.

وسررنا نحن أيضاً، لزننا اكتسبنا مودة ملك مصر وهي شيء عظيم عندنا، وسافر الوفد المصري حاملا كتاب عظمة سلطان نجد المتضمن هذا الأساس.

وفي أكتوبر سنة ١٩٢٥ وصل جلالُ السلطنةُ السلطنة وزير إيران المفوض بمصر، وعَينُ الملك قنصل إيران الجنرال في سوريا إلى الحجاز، وأخيراً عظمة السلطان بإنهما موفدان للوقوف على صحة أو كذب ما أشيع عن إصابة القبة النبوية بالقنابل، وفي أثناء إقآمتهما في المعسكر السلطاني في حدَّاء وفي مكة بحثنا معهما شئون الحجاز: ما ضيه ومستقبله، وأخبرناهما بالكتاب الذي حمله الوفد المصري، وبالدعوة التي سيوجهها جلالة ملك مصر إلى العالم الإسلامي ضوع مسألة الحجاز على بساط البحث على الأساس الموضح في الكتاب، فأظهر الوزير امتعاضه، وصرح بأن حكومته لا تقبل دعوة مثل هذه من مصر، لأن مصر دولة غير مستقلة من كل وجه، ولا شأن لها بالبلاد المقدسة، وقال لعظمة السلطان : لماذا لايدعوا هو المسلمين في مكة؟ أليس هو أولى بالدعوة؟ أو ليس هو صاحب الشأن؟ فأجابهم عظمته أنه اختار مصر لقربها من سائر البلاد

الإسلامية، ولأن الحجاز لا يزال في حالة حرب، وقد وكلت ملك مصر ولن أرجع في قولي؛ فطلب الوفد الإيراني كتابا سن عظمة السلطان إلى رئيس حكومة إيران ، يتضمن الأسس المتقدمة، ورجع الوزير مسروراً من زيارته بعدما وقف على الشيء الكثير من المعلومات من الإيرانيين المقيمين في الحجاز عن حكم الأشراف في الحجاز، وما تركه السلطان ابن السعود في نفوس الحجازيين من تواضعه وحلمه، وبساطته ولطفه، وحسن معشره ولين جانبه، وأنه لولا خشونة الإخوان لكان حكم السلطان ابن السعود نعمة من نعم ا لا تعادلها نعمة.

مضى نحو أربعة أشهر والحرب لا تزال على حالها، ولم يصل إلى عظمته شيء عما تم في أمر المؤتمر: إن الحرب قد تطول أكثر من ذلك فلماذا لا يفتح طريق الحج من جهة «رابغ» فيقضي القضاء الأخير على جدة؟ لقد نجح هذا الطريق بعض النجاح في الحج الماضي ، ووفد من الحجاج نحو أربعة آلاف نفس.

رأي عظمة السلطان أن يوفدني إلى مصر للبحث مع حكومتها في الإذن للحجاج من هذا الطريق، وقبل مغادرتي رابع دخلت جيوش السلطان المدينة ظافرة فكان ذلك مشعراً بأن حكم الأشراف في الحجاز في حالة النزع.

وصلت إلى مصر في أواخر نوفمبرة سنة ١٩٢٥م، وبعد مدة قصيرة استسلمت جدة آخر المدن الحجازية، ففرح المسلمون فرحاً عظيماً، وقابلت الصحف العربية والهندية هذا الحادث بحماسة شديدة، ونشر عظمة السلطان في ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٢٥م منشوراً عاماً على أهل الحجاز: يحضهم على الإخلاد إلى السكون والانصراف إلى أعمالهم، وختم المنشور بالجملة التالية:

« وأما مستقبل البلاد فلابد لتقريره من مؤتمر يشترك المسلمون جميعاً فيه

لينظروا مستقبل الحجاز ومصالحه».

العدول عن المؤتمر

وبعد أسبوعين من صدور المنشور الأول ، أصدر عظمة السلطان بلاغا عاما بتاريخ ٢٢ جمادي الآخرة - ٧ يناير سنة ١٩٢٦م يعلن فيه عدوله عن فكرة المؤتمر الإسلامي، لأن دعوته التي وجهها إلى الشعوب الإسلامية وإلى قادة المسلمين لم يجبه عليها أحد، وفي اليوم نفسه بايع جلالته أهل الحجاز ملكا على الحجاز، فأصبح لقلب جلالته «ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها».

تمت هذه الخطوة الجديدة وأنا في مصر أفاوض حكومتها في شذون الحج، ولم يُخْفِ علىّ أولو الأمر استياءهم، كما أن التلغرافات والصحف نشرت الشيء الكثير من استياء الهنود وجمعية الخلافة على الأخص، وعدوا ذلك نكثاً بوعود جلالة الملك الكثيرة، وقد أبرقت لجلالة الملك أخبره بحقيقة الحالة في مصر والهند، وإن جلالته لو كان تريث قليلاً لكسب الحجاز وقلوب المسلمين، فأجابني جلالته ببرقية يشرح فيها الأسباب التي دعته للتعجيل وهي إصرار أهل نجد والحجاز على ذلك، وإن حالة البلاد تستدعي البت في هذا الأمر، وقد نشرت الصحف هذه البرقية في حينها، غير أن السلطان المصرية لم يقنعها هذا الجواب، واعتقدت أن مسألة البيعة وما اكتنفها من طلب الحجازيين والنجديين إن هي إلا إيحاء من حكومة الحجاز.

أما أنا شخصياً فكنت أهتم بموضوع المؤتمر الإسلامي لأنه وسيلة من وسائل تفاهم المسلمين وإصلاح كثير من الشئون الدينية والاجتماعية، وطريقة من الطرق المثلى التي يمكننا بها خدمة الحجاز وأهل الحجاز والوافدين على الحجاز.

فالحجاز يحتاج إلى كثير من وجوه الإصلاح ، وهو وحده لايقوى على القيام

بأعبـاء هذا الإصلاح ، ويجب أن يستعين الحـجاز بعقول المسلمين المدبـرة. كما يجب على المسلمين أيضاً أن يعـينوا الحجاز بالأموال للقيام بهـذه الإصلاحات، وواجب على حكومـة الحجـاز أن توسع صدرها لسـماع كل نقد، والأخـذ بكل رأي صالح.

لقد سـئلت في مصـر عن المؤتمر الإسلامي هل عـدل عنه نهائيـاً. سئلت هذا السؤال من كثير من كـبار المصريين ورجال الحكم في ذلك الحين، فلم أكن أملك الإجابة، لأن الفصل في هذا الموضوع الخطير في مكة.

لقد كتب إلى كثير من أصـدقائي الهنود يسألون نفس السؤال، ويلحون عليّ في بذل نفوذي لعقـد المؤتمر، لأن هذا العمل من أعظم الأعمال لخـدمة الإسلام والمسلمين.

غادرت مصـر راجعاً إلى مكة فاجتـمعت بجلالة الملك عبدالعـزيز؛ وأخبرته عنه رحلتي والأثر الحسن الذي تركتـه في مصر حكومة وشعـباً، ولم أخف مبلغ التأثيرالـسيء الذي تركه إعلان الملكية في مـصر والهند، ولكن ليس في الإمكان الرجوع فيما تم طبعاً، فماذا يمكن أن نعمل للقضاء على سوء الأثر.

بحثت مع جلالة الملك مسألة المؤتمر الإسلامي فلم أجد جلالته مستعداً لقبول الفكرة فتركت الموضوع للزمن.

تكررت الكتب والتلغرافـات من الهند وغيرها من الممالك الإسـلامية بطلب عقـد المؤتمر، ووصل عينُ الملك قنصل إيران العـام في سوريا للبحـث مع جلالة الملك في شئون الحج الإيراني ومـسائل القباب والأضرحة المهـدمة، وأخبرني أن المرحوم إبراهيم وجيه باشا وكيل وزارة الخـارجية لا يزال ينتظر مني أن أخبره عن مسـألة عقد المؤتمر الإسـلامي، وبالطبع أخبرت جـلالة الملك بذلك فكانت هذه

العوامل الكثيرة لها أثرها في نفسه، فقبل عقد المؤتمر الإسلامي في مكة على شرط ألا يتعرض المؤتمر لمسألة الحكم في الحجاز، وعلى ذلك أرسلت الدعوة إلى الشعوب الإسلامية والحكومات الإسلامية، وحدد يوم ٢٠ القعدة سنة ١٣٤٤هـ لاجتماع المؤتمر، وقد لبى الدعوة أكثر من دعوا إلا مصر فأنكر الملك فؤاد وصول الدعوة أولاً ثم رفض الدعوة بعد ذلك ولكن مصر أرسلت مندوبها بعد ذلك في الوزارة الائتلافية التي كان يرأسها عدلي يكن باشا.

فشل المؤتمر

ليس هنالك من شك في أن الذين حضروا إلى المؤتمر كانت تحدوهم الرغبة في إصلاح الحجاز والخير للبلاد المقدسة، وسكانها والوفدين عليها من جميع طوائف المسلمين، وليس من شك في أن الملك بن سعود لا يقل رغبة عن هؤلاء. فلماذا إذن لم ينجح المؤتمر في الغرض الذي عقد من أجله ما دامت رغبة الملك والمؤتمرين تلتقي عند خير الحجاز والمسلمين؟

إن السبب الرئيسي هو عدم التجانس بين أعضاء المؤتمر، وبينهم وبين النجديين من جهة أخرى. فما يعده النجديون أساساً للعمل ويتعصبون له لا يشاركهم فيه بعض الشعوب الإسلامية الأخرى وما يعتقده الهنود من وسائل الإصلاح لا يشاركهم فيه الجاويون والهنود من أهل الحديث.

إن النجديين يرون أن التوحيد هو الداء الوحيد لما أصاب العالم الإسلامي من الأمراض. لقد كانت مكة والمدين مهبط الوحي ومصدر التشريع، فيجب أن نبدأ فيهما بهدم القبور وتسويتها، وهدم القباب والمساجد المقامة على القبور، وهدم كل مكان تشتم منه رائحة الإخلال بالتوحيد، كما يجب إبطال جميع البدع من الحجاز.

إن سائر المؤتمرين سياسيون أكثر منهم دينيين، فهم - وإن كانوا يتفقون مع النجديين على إصلاح حالة العالم الإسلام وإصلاح الحجاز- ولكنهم لا يتفقون مع النجديين في طريقة الإصلاح، ويقولون: إن العالم الآن يختف تمام الاخلاف عنه قبل ثلاثة عشر قوناً. وإن الواجب الآن تأليف القلوب وجمع الكلمة والتدرج بالإصلاح، وهنا يقع الخلاف بين الفريقين ويشتد النزاع. ولاسبيل إلى التوفيق.

وهنالك مسألة سياسية عربية يرى بعض المؤتمرين إثارتها، وترى حكومة الحجاز عدم الخوض فيها.

لقد كان الملك ابن السعود حكيما، فإنه في حفلة افتتاح المؤتمر منح الحرية المطلقة للمؤتمرين، إلا فيما يتعلق بالسياسة الدولية، وما بين بعض الشعوب الإسلامية من خلاف، ولكن بعض أعضاء المؤتمر لم يصغ إلى نصح الملك ابن سعود، وحاولوا البحث في مشاكل سياسة لم يكن هنالك حاجة إلى إثارتها، ولاسيما وحاجات الحجاز كثرية، ووجوه الإصلاح عديدة. ولكنهم على كل حال كان رائدهم حسن النية وخير المسلمين.

أريد أن أذكر القصة الآتية، لأنها تدل على ما كان يسود جو المؤتمر وما كانت حكومة الحكاز وقتئذ تعانيه، لأنها لا تريد أن تسوء علاقتها السياسية مع الحكومات الأجنبية ، كما لاتريد أن تمس عوطاف أعضاء المؤتمر المتحمسين.

أخبرني جلالة الملك أن السيد رشيد رضا والشيخ عبدا بن بليهد رئيس القضاة في ذلك الوقت، على أن يجتمع أعضاء مؤتمر جميعاً أمام الكعبة، ويتعاهدوا في اليوم السابع أو الثامن من ذي الحجةصباحاً بأنهم سيسعون بكل قواهم لتخليص جزيرة العرب من نفوذ الأجانب، وأنهم يعتقدون أن لهذا تأثيراً

عظيماً في الرأي الإسلامي.

فقلت لجلالته: إن نية إخواننا حسنة بلا شك، وإنهم لا يريدون إلا الخير للإسلام والمسلمين، وإن ما يتمنونه هو أمنية كل مسلم، ولكن ما هي الفائدة من هذا العهد؟ إن من يريد أن يعمل فمجال العمل أمامه واسع، وعل يكل حال فالمشروع إلى الآن لم يعرض على لجنة المشروعات.

فقال جلالته: إن الجماعة سيجتمعون عندي بعد العشاء، وكنا في اليوم الرابع من شهر ذي الحجة فيجب أن تحضر لتتفقوا جميعاً على رأي واحد.

حضرنا عند جلالة الملك بعد صلاة العشاء، وكان الحاضرون هم الشيخ عبدا ابن بليهد ، والسسيد رشيد رضا، والسيد أمين الحسيني، والمرحوم محمد علي، ومولانا شوكت علي، وكاتب هذه الأسطر، والدكتور عبدا الدملوجي، والشيخ يوسف ياسين والشيخ محمد أبوزيد المصري وغيرهم ممن لا تحضرني أسماؤهم الآن.

افتتح الحديث الشيخ عبدا بن بليهد، فقرأ صيغة القَسَم، وشرح الأغراض من العهد، والروح الجديدة التي تسرى في المسلمين والعرب حين سماعهم ذلك. وبعد أن ساد المجلس السكون طلب مني جلالة الملك رأيي.

فطلبت من الشيخ ابن بليهد الإيضاح عن المقصود بجزيرة العرب. فقال: إن المراد منها فلسطين -سوريا- العراق - وسواحل الجزيرة التي للأجانب نفوذ فيها.

فقلت: إني أشكر أصحاب الفكرة على هذه الروح الطيبة. ولا شك أن كل عربي ومسلم يتمنى أن يتمتع العرب ف يكل ناحية بما يتمتع به غيرهم من الاستقلال. ولم هذه العجلة؟ إن تركيا ومصر والأفغان واليمن قد أرسلوا

مندوبين إلى المؤتمر؛ وهم في طريقهم إليه. أليس من الحكمة أن نأخذ رأيهم في الموضوع الخطير، وهم أعلم منا بالسياسة الدولية، وأعرف بطرق معالجة هذه الشئون؟ فإذا وافقوا على هذا الاقتراح فإن لموافقتهم من القوة المعنوية ما ليس لموافقتنا. فقبل الجميع هذا الاقتراح، وسر جلالة الملك من هذه الفكرة التي هيأت له فرصة للتفكير.

وبالطبع لم يقبل أحد من مندوبي الدول هذا الاقتراح. لزنه توريط لدولهم في مشكلة هم في غنى عنها.

وقد انتهى المؤتمر الإسلامي الأول بقرارات ورغبات وتمنيات كل نصيبها الإهمال من العالم الإسلامي. لأنه لم يعدَّ لها القوة ولم يتمكن المندوبون من جمع الإعانات التي كانوا يؤملونت جمعها، وحكومة الحجاز لا تستطيع أن تقوم بما طلب منها، فليس لديها من المال ما تستطيع بها تنفيذ جميع رغبات العالم الإسلامي. وبالجملة فإن جميع الآمال التي كنا نرمي إليها من المؤتمر الإسلامي من الإصلاح الديني والاجتماعي العام، وإصلاح البلاد المقدسة إصلاحاً يتفق مع مقتضيات هذا الزمن ورفع مستوى الحجاز إلى المستوى اللائق بجلاله وقدسيته، قد فشلت. فلعل المسلمين ينتفعون من أغلاطهم، ويعملون لقعد مؤتمر آخر يعمدون فيه إلى الإصلاح، ويتركون المساعي السياسية التي ليس من ورائها فائدة إيجابية .

ابن السعود وإمام صنعاء

فم تكن هنالك صلة مراسلة أو غيرها بين سعود وإمام صنعاء حتى سنة ١٩١٩م، فإن حادثة الحة اليماني[١] في عسير كانت سبب التعارف وتبادل

(١) من يريد تفاصيل مخابرات اليمن فليراجع الكتاب الأخضر الذي أصدرته وزارة خارجية الحجاز.

الرسائل من وقت لآخر، ثم أخذت مصالح الحكومتين في التضارب بعد موت السيد محمد علي الإدريسي وانتهاز الإمام يحيى الفرصة لطي صحيفة حكمهم من عسير ، وتقدم سلطان نجد في الحجاز، كل هذا جعل الفريقين وجهاً لوجه.

فإن الأدارسة بعد ما أحسوا بالخطر المحدق بهم ولوا وجههم شطر ابن سعود حليف محمد علي الإدريسي. فأعلن الحماية على عسير، وأخبر الإمام يحيى بذلك في خريف سنة ١٩٢٦م. ثم أخذ الفريقان يتبادلان الكتب والوفود للوصول إلى حل حاسم خاص بالحدود والقبائل . فلم يوفقوا إلى ذلك، لأن حسن النية لم يكن متوفراً من كل وجه. وأخيراً اضطر ابن سعود لامتشاق الحسام بعد أن أعيته الحيل، وبعد أن انتهك الإمام حرمة بلاده باحتلال قسم مها. وقد تمكن الملك عبدالعزيز في مدة قصيرة من التقدم في تهامة حتى الحديدة. غير أنه – وهو الرجل العاقل النافذ البصر– لم يكن يرمي في الحقيقة إلى فتح اليمن. لزن ذل يلقى عليه مسئوليات جديدة، وربما يعرض البلاد العربية للتدخل الأجنبي، والملك عبدالعزيز يفضل أن يفتح قلب إمام اليمن ويكتسب وده وصداقته أكثر من فتح اليمن نفسها. وقد وصل إلى الغرض الذي كان يرمي إليه. فإمام اليمن قد أفهمته الحوادث قوة ابن سعود، وأن ما توهمه من ضعف لم يكن إلا حلماً وطول أناة، وقد ضرب الملك عبدالعزيز بالصلح الذي عقده مع إمام اليمن أفضل الأمثال في التسامح واكتساب صداقة خصمه، كما ضرب أفضل الأمثال في حبه للتفاهم مع أمراء العرب، وسعيه للاتحاد العربي الذي ينشده أحرار العرب ومفكروهم من نصفقرن. ولعلنا نرى في المستقبل القريب الرغبة الصادقة من ملوكهم وأمرائهم في التفاهم وإزالة مابينهم من إحن شخصية، وتقديم المصالح المشتركة العامة على الاعتبارات الشخصية. فإن مجد العرب لا يسترد إلا باجتماع كلمة العرب واتحادهم. بصر ا العرب وملوكهم لما فيه خيرهم

وصلاحهم.

ويسرنا أن تنبعث روح جديدة من مصر تدعـو إلى التقارب والتفاهم، وتبادل المصالح واتخاذ جميع الوسـائل الممكنة، وتذليل الصعوبات في خلق اتحاد عربي عملي يرتفع به شـأن العرب والمسلمين ويقضي إن شاء ا على خطـر اليهود في فلسطين بعد الكارثة التي منـى بها العرب - بسببـتفرقهم وعـدم إعطائهم الأمور حقها - في حرب فلسطين.

opeikandl.com